الصبار الأزرق

سرد المقاومة بين الذاكرة والهوية

قراءة نقدية في رواية ذياب فهد الطائي

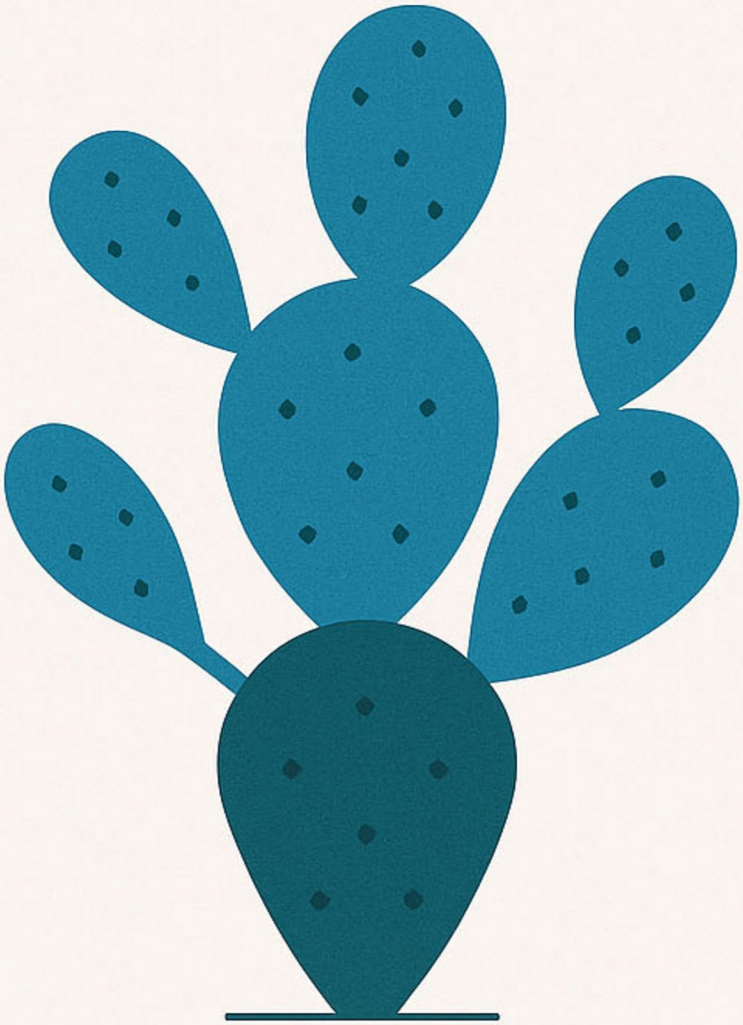

سعد عزيز دحام

الصبار الأزرق: سرد المقاومة بين الذاكرة والهوية – قراءة نقدية في رواية ذياب فهد الطائي

سعد عزيز دحام

مقدّمة

تأتي رواية (الصبّار الأزرق) للروائي العراقي ذياب فهد الطائي بوصفها شهادة سردية على مرحلة مفصلية من التاريخ العراقي الحديث، وتحديدًا انتفاضة آذار عام 1991، تلك اللحظة التي التهبت فيها الجغرافيا بالوجع، وارتجف فيها الإنسان بين أمل التحرّر وجحيم القمع.

يقدّم الطائي عملاً ينتمي إلى الأدب الواقعي التأمّلي، حيث لا يكتفي بتوثيق الحدث، بل يتوغّل في أعماق الشخصيات، ليكشف عن الوعي الجمعي للأفراد الذين وجدوا أنفسهم وسط الإعصار.

أولاً: البنية السردية بين التوثيق والرمز

يتّخذ السرد في (الصبّار الأزرق) منحىً تعدّديّ الأصوات، فالرواية لا تعتمد على راوٍ واحد، بل على تداخل الرؤى وتنوّع زوايا النظر، ما يمنحها بعدًا دراميًا غنيًّا.

يُعيد الكاتب بناء الحدث التاريخي من خلال الذاكرة الفردية، فالشخصيات تسترجع الماضي لا لتبكيه، بل لتعيد مساءلته، وكأنّ الرواية تقول إنّ الذاكرة ليست مكانًا للحسرة، بل حافزٌ للفهم والمقاومة.

أما عنوان الرواية، الصبّار الأزرق، فهو علامة رمزية ذات كثافة دلالية؛ فالصبّار، نبات الصبر والتحمّل، يرتدي لون السماء والجرح معًا. اللون الأزرق هنا ليس برودةً، بل سكينةٌ ممزوجة بالألم، تلخّص المزاج النفسي للمرحلة العراقية التي تتحدث عنها الرواية.

ثانيًا: الشخصيات بوصفها مرايا للوعي الجمعي

يبرع الطائي في بناء شخصياته من الداخل، فلا نجد بطلاً نمطيًا أو شريرًا مطلقًا، بل أفرادًا مأزومين يعيشون بين الخوف والكرامة.

يمنح الكاتب لكل شخصية صوتها الخاص، ومجالها النفسي، فتغدو الرواية مسرحًا للتجاذب بين الذاكرة والواقع، بين ما ينبغي أن يكون وما هو كائن.

من خلال هذه الشخصيات، يرسم الطائي صورة إنسان عراقيّ مثخن بالخذلان، لكنه لا يفقد قدرته على الحلم .

فالشخصيات تُقاوم بالذكريات، وتعيش على شفير الأمل، في تماهٍ بين الذاتي والجماعي، بين مأساة الفرد وملحمة الوطن.

ثالثًا: الأسلوب واللغة: من الواقعية إلى الشعرية

تمتاز لغة الرواية بقدرتها على التحوّل من السرد الواقعي إلى النَفَس الشعري دون أن تفقد صدقيّتها.

فالجُمل تتّخذ إيقاعًا داخليًا هادئًا، أشبه بأنينٍ متقطّع، لكنها مشحونة بطاقة رمزية عالية.

يمارس الكاتب نوعًا من الاقتصاد اللغوي العاطفي، حيث لا إسراف في الانفعال، بل عمق في الإيحاء.

تتحوّل اللغة إلى مساحة مقاومة بحدّ ذاتها، تعيد للوجع جماله وللكلمة وظيفتها الإنسانية: التذكّر والشفاء.

رابعًا: المكان بوصفه ذاكرة حية

يبرز المكان في الرواية ليس كإطار للأحداث، بل ككائنٍ يتنفس ويشهد.

المدن والقرى والشوارع في (الصبّار الأزرق) ليست ديكورات، بل كيانات لها روح ووجدان.

فالمكان العراقي – بترابه وبيوته المهدّمة – يتحوّل إلى ذاكرة متجسّدة، تحاور الشخصيات وتعيد تشكيل مصائرها.

ومن خلال هذا التوظيف البارع للمكان، ينجح الطائي في تحويل الجغرافيا إلى نصٍّ موازي، يكتب تاريخًا آخر غير المدوَّن.

خامسًا: دلالة الصبر والمقاومة

العنوان ذاته يكثّف ثيمة الرواية الجوهرية: الصمود في وجه القهر.

الصبّار رمزٌ لروحٍ لا تموت، ولقدرة الإنسان على إعادة اختراع ذاته بعد كل انكسار.

وفي هذا المعنى، تتجاوز الرواية حدود الزمان والمكان، لتصبح أنشودةً إنسانية ضدّ العنف والنسيان.

أخيرًا تُعدّ رواية (الصبّار الأزرق) من الأعمال التي تنجح في الجمع بين الصدق التاريخي والعمق الإنساني، وبين التحليل النفسي والرمز الفني.

لقد استطاع ذياب فهد الطائي أن يكتب رواية تؤكد أن نصًّا يمزج بين الشهادة والتأمل، بين الواقعة والحلم، وأن يجعل من الذاكرة العراقية فضاءً مفتوحًا للحوار والمساءلة.

إن الأدب ليس مرآة للواقع فقط، بل وسيلةٌ لفهمه وتجاوزه، وأن الصبّار الأزرق سيبقى رمزًا لجمالٍ يولد من الرماد.